المركز الماركسي - اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين

الاشتراكية الطوباوية و الاشتراكية العلمية

مكتبة النجمة الحمراء

انجلس

الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية (٢٦)

مقدمة الطبعة الانجليزية عام ١٨٩٢

كان هذا الكراس في البدء جزءاً من مؤلف اكبر . ونحو عام ١٨٧٥ ، اعلن الدكتور اوجين دوهرينغ ، **الاستاذ المحاضر** في جامعة برلين ، فجاة وبلهجة صارخة ، اعتناقه الاشتراكية ، وتقدم من الجمهور الالماني ، لا بنظرية اشتراكية موضوعة بشكل مفصل وحسب ، بل ايضاً بخطة عملية مكتملة لتحويل المجتمع ومن البديهي انه هاجم اسلافه وكان ماركس اكثر من استحق بينهم اهتمامه ، فصب عليه كل جام غضبه .

جرى ذلك فور اندماج كتلتي الحزب الاشتراكي في المانيا ، كتلة الايزيناخيين وكتلة اللاساليين (٢٧) ، مما ادى ، بالتالي ، لا الى نمو الحزب عددياً وحسب ، بل ايضاً ، وهو الامر الاهم ، الى توفير الامكانية لتوجيه كل قواه ضد العدو المشترك وكان الحزب الاشتراكي بسبيل ان يصير بسرعة قوة في المانيا . ولكن ، لكي يصير قوة ، كان ينبغي ، قبل كل شيء ، الاّ تتعرض الوحدة المكتسبة حديثاً لاي خطر بيد ان الدكتور دوهرينغ اخذ يجمع علناً حول شخصه طائفة ، هي نواة حزب انفصالي في المستقبل فكان لا بد لنا من رد القفاز الذي رمي بوجهنا ،ومن خوض النضال ، شئنا ام ابينا .

لم تكن المهمة صعبة صعوبة فائقة ، ولكنها كانت طويلة النفس . فنحن الالمان ، كما يعرف الجميع جيداً ،

موصوفون بـ Gründlichkeit ثقيل رهيب ، بعمق فكري او فكر عميق ، كما يطيب لك ان تسميه فكلما بدأ احدنا يعرض ما يعتبره هو مذهباً جديداً ، رأى من الضروري ان يضعه ، قبل كل شيء ، في صورة نهج يشمل الكون بأسره ينبغي له ان يقدم الدليل على ان اسس المنطق الاولى وعلى ان القوانين الاساسية للنظام الكوني لم توجد منذ الازل الاّ لتؤدي الى هذه النظرية المكتشفة حديثاً ، والتي تتوج كل شيء ومن هذه الناحية ، كان الدكتور دوهرينغ مفصلا تماماً حسب هذا المقياس القومي . فاذا ما ينبغي ان اتصرف الى بحثه لا يقل ابداً عن كامل «نظام الفلسفة» — فلسفة الروح والاخلاق والطبيعة والتاريخ ، وكامل «نظام الاقتصاد السياسي والاشتراكية» ، واخيراً عن «تاريخ انتقادي للاقتصاد السياسي» ، اي ثلاثة مجلدات ضخمة من القطع العادي ، ثقيلة الوزن والمحتوى ، ثلاثة جيوش من الحجج المحشودة والمعباة ضد الفلاسفة والاقتصاديين السابقين بعامة وضد ماركس بخاصة ، اي في الواقع ، محاولة «لقلب العلم» بصورة تامة كان علي ان اتناول جميع المواضيع من كل شاكلة ونوع من مفاهيم الزمان والمكان حتى نظام المعدنين (٢٨) ، من سرمدية المادة والحركة حتى ما تتصف به افكارنا الاخلاقية من قابلية للزوال ، من نظرية داروين حول الاصطفاء الطبيعي حتى تربية الشبيبة في المجتمع المقبل الا ان شمول نهج خصمي اتاح لي ، على كل حال ، ان ابدي آراء ماركس وآرائي حول هذا التنوع الكبير من المواضيع واعارض بها آراء خصمي ، وان اعرضها بصورة مترابطة اكثر بكثير مما في الماضي هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني الى القيام بهذه المهمة المزعجة من جميع النواحي الاخرى .

صدر جوابي لولا في جملة من المقالات نشرتهـا جريدة "Vorwärts„ (« فورفارتس ») (٢٩) في لايبزيغ ، وهي الناطقة الرئيسية بلسان الحزب الاشتراكي ، ثم في كتاب تحت عنوان "Herrn Eugen Dühring's Umwälzung der Wissenschaft„ (« السيد اوجين دوهرينغ يقلب العلم ») وفي ١٨٨٦ ، صدرت منه طبعة ثانية في زوريخ

وبناء على طلب صديقي بول لافارغ ، وهو الآن نائب مدينة ليل في مجلس النواب الفرنسي ، اخذت ثلاثة فصول من هذا الكتاب وجعلت منها كراسا ترجمه ونشره ، عام ١٨٨٠ ، تحت عنوان **« الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية »** ثم صدرت ترجمة بولونية وترجمة اسبانية وفقا للنص الفرنسي ؛ غير ان اصدقاءنا الالمان اصدروا الكراس بلغته الاصلية عام ١٨٨٣ ؛ ومذ ذاك ، صدرت ترجمات وفقا لهذا النص الالماني بالايطالية والروسية والدانماركية والهولندية والرومانية وهكذا صدر هذا الكراس بعشر لغات بما في ذلك الطبعة الانجليزية الحالية . وانا لا اعرف اي مؤلف اشتراكي آخر ترجم الى هذا العدد من اللغات ، حتى ولا « البيان الشيوعي » • الذي اصدرناه عام ١٨٤٨ ولا كتاب « رأس المال » لماركس . وفي المانيا ، صدرت منه اربع طبعات ، تعدّ بالاجمال زهاء ٢٠ ألف نسخة

ان الملحق « المارك » (٣٠) قد كتب بقصد نشر بعض المعلومات الاولية في صفوف الحزب الاشتراكي الالماني عن تاريخ نشوء وتطور ملكية الارض في المانيا . وفي هذا الوقت كان ذلك ضروريا خصوصا لان توحيد العمال في المدن من قبل الحزب كان

• راجع هذه الطبعة ، الجزء الاول ، ص ص ٤١–٩٦ . الناشر .

في السبيل القويم المؤدي الى انجازه فواجهت الحزب مهمة الاهتمام بالعمال الزراعيين وبالفلاحين وقد أُدرج هذا الملحق في هذه الطبعة المترجمة لاعتبارات شتى منها ان الاشكال البدائية لملكية الارض – المشتركة عند جميع القبائل الجرمانية – وتاريخ تفسخها معروفة في انجلترا اقل مما في المانيا . وقد تركت النص في صورته الاولية ، دون ان اتناول فيه الفرضية التي تقدم بها مكسيم كوفاليفسكي مؤخراً والتي تقول ان تقسيم الاراضي المحروثة والاراضي المرجية بين اعضاء المارك قد سبقته العناية المشتركة العامة بها من قبل المشاعة العائلية البطريركية الكبيرة التي تشمل بضعة اجيال (وهذا ما يمكن ان تقدم المثال عليه زادروغا سلافيي الجنوب التي لا تزال موجودة الآن) ؛ وفيما بعد ، عندما تنامت المشاعة واصبحت مفرطة الضخامة من اجل ادارة الاقتصاد بصورة مشتركة ، جرى تقسيم اراضي المشاعة (٣١) ان كوفاليفسكي محق تماما ، على الارجح ، ولكن المسالة لا تزال sub judice *

ان التعابير الاقتصادية المستعملة في هذا الكتاب تنطبق ، بقدر ما هي جديدة ، على تعابير الطبعة الانجليزية لكتاب «رأس المال» لماركس ونحن نعني «بالانتاج البضاعي» هذه المرحلة من التطور الاقتصادي التي لا تنتج فيها المنتجات لتلبية حاجات المنتجين وحسب ، بل ايضا بقصد التبادل ، اي **بوصفها بضائع** ، لا قيما استعمالية . وتمتد هذه المرحلة منذ خطوات الانتاج الاولى في سبيل التبادل حتى ايامنا ؛ وهي لا تبلغ ذروة تطورها الا مع الانتاج الراسمالي اي مع الظروف التي يشغل فيها الراسمالي ،

---

* – قيد البحث . الناشر .

مالك وسائل الانتاج ، عمالا لقاء اجر ، اي اناساً محرومين من كل وسيلة للانتاج باستثناء قوة عملهم ، – ويضع في جيبه الفرق بين ثمن مبيع المنتجات ونفقات انتاجها ونحن نقسم تاريخ الانتاج الصناعي ، منذ القرون الوسطى ، الى عهود ثلاثة ١ – الصناعة الحرفية ، وتشمل معلمين حرفيين صغاراً ، يعاونهم عدد صغير من الصناع والمتدربين ، وحيث يصنع كل عامل السلعة بكاملها ٢ – المانيفاكتورة ، وتجمع عدداً اكبر من العمال في مؤسسة كبيرة ، فيصنعون السلعة بكاملها وفقاً لمبدأ تقسيم العمل ، اي ان كل عامل لا يقوم الا بعملية جزئية ، بشكل لا تنتهي معه السلعة الا بعد مرورها على التوالي في ايدي الجميع ٣ – الصناعة العصرية ، حيث تصنع المنتوج آلات تحركها قوة ما ، وحيث يقتصر دور العامل على مراقبة عمل الآلات وضبطها

واني اعرف تمام المعرفة ان قسماً كبيراً من القراء الانجليز لن يستقبل مضمون هذا الكتاب بالترحاب ولكن ، لو كنا ، نحن القارّيين ، اعرنا اقل اهتمام لاوهام «الاحترامية» البريطانية ، لكنا نعاني وضعاً شراً من الوضع الذي نعانيه الآن فان هذا الكتاب موضوع دفاعاً عما نسميه «المادية التاريخية» ، وكلمة «مادية» تخدش آذان الاغلبية الساحقة من القراء الانجليز فهم يعتبرون انه يمكنهم التساهل ازاء «العجزية» (٣٢) ولكنه لا يجوز اطلاقاً القبول بالمادية

هذا في حين ان انجلترا بالذات كانت ، ابتداء من القرن السابع عشر ، مهد المادية العصرية كلها .

«المادية هي الابنة الطبيعية لبريطانيا العظمى فقد سبق لاحد اقطابها في الفلسفة الكلامية (٣٣) ، دونس سكوت ان تساءل ما اذا كان بوسع المادة ان تفكر .

ولاجل تحقيق هذه المعجزة ، لجأ الى الله الكلي الجبروت ، اي انه اكره اللاهوت (٣٤) ذاته على الدعوة للمادية وكان ، من جهة اخرى ، من انصار مذهب الاسمية (٣٥) . ومذهب الاسمية كان احد العناصر الرئيسية عند الماديين الانجليز ، وهو ، على العموم ، الشكل الاول من اشكال المادية

اما الاب الحقيقي للمادية الانجليزية فهو باكون . وهو يعتبر ان علم الطبيعة هو العلم الصحيح الوحيد ؛ والفيزياء القائمة على تجربة الحواس ، هي القسم الاهم من علم الطبيعة . وانكساغوراس واصوله المتماثلة (٣٦)وديموكريتس وذراته همـــا مرجعاه المفضلان . والحواس في مذهبه ، معصومة عن الخطا ، وهي ينبوع كل معرفة . والعلم علم تجريبي ، ووظيفته اخضاع معطيات الحواس لطريقة عقلانية . والاستقراء ، والتحليل ، والمقارنة ، والملاحظة ، والاختبار ، كلها هي الشروط الرئيسية للطريقة العقلانية ان الخاصة الاولى الرئيسية من الخصائص الملازمة في الاصل للمادة هي الحركة ، لا من حيث انها حركة آلية ورياضية وحسب ، بل من حيث انهـــا ايضاً ، وبخاصة ، اندفاع ، ومبدأ حياة ، وتوتر ، و«عذاب» ("Qual„) • المادة ، على حد قول يعقوب بوهم

ثم ان المادية عند باكون ، مبدعها الاول ، تنطوي ايضا ، بصورة ساذجة ، على بذور تطور شامل . والمادة تبتسم للانسان

• "Qual„ – هذا تلاعب فلسفي بالكلام فان "Qual„ تعني حرفيا العذاب ، الألم الذي يدفع الى القيام بعمل ما ؛ وفي الوقت نفسه ، يضمن الصوفي بوهم هذه الكلمة الالمانية شيئاً ما من الكلمة اللاتينية qualitas (الصفة) . فان "Qual„ بوهم انما هو ، خلافا للألم الناجم عن سبب خارجي ، مبدأ فعّال ينبثق من التطور التلقائي لشيء او علاقة او شخصية تكابد "Qual„ وتثير بدورها هذا التطور .

كله بروعتها الحسية والشعرية اما المذهب نفسه المعروض بشكل حِكم موجزة ، فهو ، بالعكس ، لا يزال يزخر بالمتناقضات اللاهوتية .

وقد غدت المادية وحيدة الطرف ، خلال تطورها وجعل هوبس من المادية الباكونية نهجاً متناسقاً . وفقدت الحسية الوانها الزاهية وغدت مجرد حسية المهندس واعلنت الهندسة العلم الاول بين العلوم . وامست المادية معادية للانسان ؛ فاذا شاءت ان تقهر الروح بلا جسد المعادية للانسان في ميدانها نفسه ، ترتب عليها ان تقهر جسدها بالذات وان تصير ناسكة وبدت المادية كائناً من عقل ، ولكنها طورت ، في الوقت نفسه ، كل استنتاجات العقل بانسجام ، دون اي وخز في الضمير ، دون تشكك

واستناداً الى باكون ، عرض هوبس الفكرة التالية اذا كانت حواسنا هي مصدر كل معارفنا ، فليست المفاهيم ، الافكار ، التصورات ، الخ سوى اشباح العالم المادي المجرد ، بدرجات متفاوتة ، من شكله الحسي ولا يسع العلم الا ان يسمي هذه الاشباح . ويمكن اطلاق اسم واحد على اشباح كثيرة . وقد يكون ثمة ايضاً اسماء اسماء . ولكنه من التناقض ان نقر ، من جهة ، بان جميع الافكار تنبع من العالم المحسوس ، وان نؤكد ، من جهة اخرى ، ان الكلمة هي اكثر من كلمة ؛ وانه توجد ايضاً كائنات عامة فضلاً عن الكائنات التي نتصورها دائماً كائنات فردية ان القول باصل غير جسمي اخرق كما هو عليه القول بجسم غير جسمي . الجسم ، الكائن ، الجذل ، ان هذه التعابير ليست سوى تعابير مختلفة لنفس الواقع الواحد . **ولا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة** ان المادة هي قوام • جميع التغيرات التي

• اصل ، جذل substantia . المعرب .

تحدث . وكلمة لامتناه لا معنى لها اذا كانت لا تعني قدرة روحنا على الاضافة بلا نهاية الى مقدار ما معين وبما ان حواسنا لا تحس غير الاشياء المادية ، فاننا لا نعرف شيئاً عن وجود الله . فقط وجودي انا اكيد ، ثابت . وكل هوى انساني هو حركة آلية ، تبدأ او تنتهي . واغراض البواعث هي الخير والانسان خاضع لنفس القوانين التي تخضع لها الطبيعة . والقوة والحرية متماثلتان .

لقد جعل هوبس من الباكونية نهجاً متناسقاً ، ولكنه لم يقدم ادلة ادق لدعم مبدئه الاساسي القائل ان اصل المعارف والافكار هو في عالم الحواس . فجاء لوك وقدم الادلة لدعم مبدأ باكون وهوبس في مؤلفه حول اصل الادراك البشري (٣٧)

واذا كان هوبس قد حطم تحطيماً ما تخلل مادية باكون من اوهام تتعلق بالاعتقاد بالتاليه الشخصي (٣٨) ، فان كولينز ، ودودويل ، وكاوارد ، وهارتلي ، وبريستلي وغيرهم قد هدموا الحدود اللاهوتية الاخيرة في مذهب الحاسيين كما نادى به لوك (٣٩) وفي كل حال ، ليس التاليه السببي (٤٠) بنظر المادي ، سوى طريقة ملائمة ، سهلة ، للتخلص من الدين» * .

هذا ما كتبه كارل ماركس بصدد منشأ المادية العصرية البريطاني فاذا كان انجلز اليوم غير مسرورين بخاصة من هذا الاعتراف بمآثر اجدادهم ، فهذا شانهم ، ويا حيفهم ! غير انه ما يزال من الثابت مع ذلك ان باكون وهوبس ولوك كانوا آباء هذه المدرسة الرائعة من الماديين الفرنسيين الذين ، رغم ما

---

* ماركس وانجلس . «العائلة المقدسة» ، فرانكفورت على الماين ، ١٨٤٥ ، ص ص ٢٠١-٢٠٤ .

احرزه الالمان والانجليز من انتصارات على الفرنسيين في البر والبحر ، جعلوا من القرن الثامن عشر القرن الفرنسي على الاغلب ، وذلك قبل تتوج نهايته بالثورة الفرنسية بزمن طويل ، بهذه الثورة التي لا نزال نحاول ان نكيف نتائجها ، ان نبلدها في انجلترا والمانيا .

وليس لنا ان ننكر هذا ان الاجنبي المثقف الذي كان يختار محل اقامته في انجلترا ، في منتصف قرننا ، كانت تتملكه الدهشة اشد ما يتملكه — ولم يكن من الممكن ان يشعر بشعور آخر — امام حماقة الطبقة المتوسطة الانجليزية «المحترمة» وامام تظاهرها بالتقوى والتدين . في ذلك العهد ، كنا جميعاً ماديين او ، على الاقل ، مفكرين احراراً جد متقدمين ، وكان من غير المعقول بنظرنا ان يصدق تقريباً جميع الناس المتعلمين في انجلترا شتى انواع المعجزات المستحيلـــة ، او حتى ان يقدم الجيولوجيون ، مثل باكلاند ومانتل ، على تشويه معطيات علمهما لكي لا تاتي متناقضة الى درجة كبيرة جداً مع سفر التكوين كان يبدو من غير المعقول انه ينبغي المضي الى الاميين ، او «الجماهير القذرة» ، كما كانوا يقولون آنذاك ، الى العمال وبخاصة الى الاشتراكيين ، اتباع اوين ، من اجل ايجاد اناس يجرؤون على الاستناد الى ادراكهم بالذات في مسائل الدين .

ولكن انجلترا «تمدنت» مذ ذاك . فان معرض ١٨٥١ (٤١) دق جرس نعي عزلتها الجزائرية . فقد غدت تدريجياً اممية من حيث الغذاء والسلوك والافكار ، الى حد اني ارغب اكثر فاكثر ان تنتقل بعض العادات وطرائق السلوك الانجليزية الى القارة وتطبق فيها بصورة شاملة كما طبقت بعض العادات القارّية في انجلترا هناك امر واحد لا ريب فيه ، هو ، ان نشر زيت الزيتون (الذي

كانت تعرفه الاريستقراطية وحدها قبل ١٨٥١) قد صحبه بصورة لا مناص منها انتشار التشكك القارّي في مسائل الدين ؛ وقد بلغ الامر الى حد ان تقف العجزية ، فيما يتعلق بالاحترامية ، في نفس مستوى شيعة المعمودية تقريباً وفوق «جيشن الخلاص» (٤٢) بلا جدال ، وذلك رغم انها لا تعتبر بعد «شيئاً ممتازاً» مثلما هي عليه كنيسة الدولة الانجليزية . واني لا استطيع ان امنع نفسي عن التفكير في ان الكثيرين ممن تنعصر قلوبهم حزناً واسفاً بصدد التقدم الذي احرزه الجحود ويلعنونه ، سيجدون العزاء اذا ما علموا ان هذه «المفاهيم الحديثة» ليست اجنبية المنشا ولا تحمل ماركة made in Germany • كما هو عليه الكثير من حاجيات الاستعمال اليومي ، بل انها انجليزية الاصل الى اعمق حد ، وان البريطانيين الذين وضعوها كانوا ، منذ مائتي سنة ، يمضون حقاً الى ابعد بكثير مما يجرؤ عليه خلفاؤهم اليوم .

وبالفعل ، ما هي العجزية ان لم تكن مادية «خجلة» ، اذا استعملنا كلمة لنكشيرية بليغة التعبير ؟ فمفهوم العجزي عن الطبيعة مادي بكليته . فالعالم الطبيعي كله تحكمه قوانين ولا يقرّ بتدخل اي فعل خارجي . ولكن العجزي يضيف قائلا : نحن لا نملك الوسيلة التي تتيح لنا ان نؤكد او ان ندحض وجود كائن ما اعلى ما وراء الكون المعروف من الممكن انه كانت لهذا القول قيمة ما في العهد الذي رد فيه الفلكي العظيم لابلاس باعتزاز على نابوليون حين سأله لماذا لم يذكر اسم خالق العالم في كتابه «الميكانيك السماوي» "Je n'avais pas besoin de cette hypothèse„ •• . غير انه لم

• — من صنع المانيا . الناشر

•• — ولم اكن بحاجة الى هذه الفرضية» . الناشر .

يبق ثمة مكان اليوم ، اطلاقا ، لخالق او لمنظم ، نظراً لمفهومنا عن تطور الكون فان القول بكائن اسمى ، واقف خارج الكون الموجود كله ، هو بحد نفسه تناقض ، ناهيك بانه يبدو لي بمثابة اهانة بدون داع لمشاعر المؤمنين .

ان صاحبنا العجزي يقر ايضاً بان معرفتنا كلها تقوم على اساس المعطيات التي تقدمها حواسنا ؛ ولكنه يضيف من اين نعرف ان حواسنا تقدم لنا صوراً صحيحة عن الاشياء التي تحسها ؟ ويواصل قوله ويبلغنا انه ، حين يتحدث عن الاشياء او صفاتها ، لا يقصد في الواقع هذه الاشياء او صفاتها التي لا يمكنه ان يعرف اي امر ثابت ، اكيد عنها ، انما يقصد فقط انطباعاتها على حواسه لا ريب ان هذه وجهة نظر من الصعب ، على ما يبدو ، دحضها بالحجج وحدها . ولكن قبل ان بدأ الناس بتقديم الحجج كانوا يعملون . "In Anfang war die That" * . وقد حل العمل الانساني هذه الصعوبة قبل ان يختلقها التفلسف الانساني بزمن طويل . البرهان على وجود الكعكة في أكلها . ففي اللحظة التي نستعمل فيها شيئاً ما لانفسنا وفقاً للصفات التي نحسها فيه — في هذه اللحظة بالذات نمتحن امتحاناً لا خطأ فيه ، صحة او عدم صحة احساساتنا الحسية . فاذا كانت هذه الاحساسات خاطئة ، كان رأينا في امكانية استعمال الشيء المعني خاطئاً ايضاً ؛ وكان لا بد من ان تؤدي كل محاولة لمثل هذا الاستعمال الى الاخفاق ولكن ، اذا نجحنا في بلوغ هدفنا ، اذا تبين لنا ان الشيء ينطبق على فكرتنا عنه وانه يعطي النتيجة التي توقعناها من استعماله ،

---

* — «في البدء كان العمل» (غوته «فاوست» . القسم الاول ، المشهد الثالث (مكتب فاوست)) . الناشر .

كان ذلك الدليل الايجابي على ان احساساتنا بالشيء وصفاته تنطبق ضمن هذه الحدود على الواقع القائم خارجاً عنا . وحين نرى ، بالعكس ، اننا اخطانا ، فاننـــا نعرف ، بعد وقت قصير على الاغلب ، كيف نكتشف سبب هذا الخطأ ؛ فنجد ان الاحساس الذي كان اساس امتحاننا ، اما انه كان بحد نفسه سطحياً وغير كامل ، واما انه كان مرتبطاً بنتائج احساسات اخرى على نحو لا يبرره الواقع ؛ وهذا ما نسميه بالقياس الفاسد . وما دمنا نطور حواسنا ونستخدمها على نحو صحيح ، وما دمنا نحصر نشاطنا في الحدود التي رسمتها احساساتنا الحاصلة والمستخدمة على نحو صحيح ، فاننا سنجد دائماً ان نجاح اعمالنا يقدم البرهان على تطابق احساساتنا مع الطبيعة الموضوعية للاشياء المحسوسة . وحسب معرفتنا حتى الآن ، لم يحدث مرة ان ترتب علينا ان نستنتج ان احساساتنا الحسية ، المراقبة علمياً ، تولد في عقلنا افكاراً عن العالم الخارجي تحيد بحكم طبيعتها عن الواقع ، او ان تنافراً لازباً يقوم بين العالم الخارجي واحساساتنا الحسية به

والآن ، يطل العجزي الكانطي الجديد ويقول من الممكن اننا نستطيع ان نحسّ على نحو صحيح صفات شيء من الاشياء ، ولكننا لا نستطيع ، باي اسلوب حسي او ذهني ، ان نعرف الشيء بحد ذاته ان هذا «الشيء بذاته» يقع خارج معرفتنا . وقد اجاب هيغل على هذا القول منذ زمن بعيد : اذا كنت تعرف جميع صفات شيء من الاشياء ، عرفت الشيء ذاته ؛ ولا يبقى من ثم الاّ مجرد واقع هو ان الشيء المذكور موجود خارج عنك ، وحين تثبت حواسك هذا الواقع ، تدرك كلياً وتماماً هذا «الشيء بذاته» ، هذا "Ding an sich" المجهول الشهير الذي قال به كانط

لا يسعنا في الوقت الحاضر الا ان نضيف الى ذلك ان معرفتنا

الاشياء الطبيعية كانت في زمن كانط غير متصلة الى حد انه كان بالامكان افتراض وجود «شيء بذاته» خفي خاص ، ما وراء القليل مما كنا نعرفه عن كل من هذه الاشياء . ولكن هذه الاشياء التي لا يمكن ادراكها قد ادركت ، منذ ذلك الحين ، الواحد بعد الآخر ، وحللت ، بل تم صنعها ايضا ، وكل ذلك بفضل منجزات العلم الجبارة فان ما نستطيع صنعه بانفسنا ، لا نستطيع ، بالطبع ، القول عنه انه يستحيل ادراكه . فالمواد العضوية مثلا كانت من هذه الاشياء الخفية بالنسبة لكيمياء النصف الاول من قرننا ، اما اليوم ، فيتسنى لنا ان نركبها اصطناعيا الواحدة بعد الاخرى ، من عناصرها الكيميائية ، دون وساطة اية عملية عضوية . ويؤكد الكيميائيون المعاصرون انه ، متى عرف التركيب الكيميائي لاي من الاجسام ، امكن تركيبه من عناصره صحيح اننا ما نزال بعيدين جداً عن المعرفة الدقيقة لتركيب المواد العضوية العليا ، ونعني بها الاجسام الآحينية ؛ ولكن ، ليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد اننا لن نستطيع بلوغ هذه المعرفة ، بعد قرون وقرون ، واننا لن نستطيع بواسطة هذه المعرفة انتاج الآحين الاصطناعي وحين نبلغ هذه النتيجة نكون قد صنعنا الحياة العضوية ، لان الحياة ، من ابسط اشكالها حتى اعلاها ، ليست سوى الطريقة العادية لكينونة الاجسام الآحينية .

ولكن ، ما ان يبدي صاحبنا العجزي تحفظاته الشكلية ، حتى يتكلم ويتصرف كاعرق الماديين ، كما هو في جوهر الامر فقد يقول : نظراً لما نعرف نحن ، لا يمكن خلق المادة والحركة — او الطاقة كما يقال في الوقت الحاضر — ولا يمكن ابادتهما ، بيد انه ليس لنا اي دليل على انهما لم تخلقا في وقت من الاوقات نجهله نحن . ولكن اذا حاولت ان توجه هذا الاعتراف ضده ، في حالة

خاصة ما من الحالات ، عجل في ختم المناقشة . واذا اقر بامكان الروحانية (٤٣) in abstracto * ، رفض الاقرار او التحدث بوجودها in concreto ** وقال لك حسب ما نعرف وما نستطيع ان نعرف ، ليس ثمة خالق او منظم للكون ؛ وحسب ما نعرف نحن ، لا يمكن كذلك لا خلق المادة والطاقة ولا ابادتهما ؛ وما الفكر ، بنظرنا ، الا شكل من اشكال الطاقة ، ووظيفة من وظائف الدماغ ؛ وكل ما نعرفه ، هو ان العالم المادي تحكمه قوانين ثابتة ، وهكذا دواليك . فهو اذن مادي ، بوصفه رجل علم ، بوصفه يعرف شيئاً ما ، ولكنه ، خارج علمه ، اي في الميادين التي لا يعرف فيها شيئاً ، يترجم جهله الى اليونانية ويسميه العجزية

وفي كل حال ، ثمة امر واحد لا ريب فيه : اني ، حتى ولو كنت عجزياً ، لما استطعت ان اطلق على المفهوم الوارد في هذا الكراس عن التاريخ ، اسم «العجزية التاريخية» . فان الناس المتدينين سيسخرون مني ، ويسألني العجزيون باستياء اذا كنت اريد الاستهزاء بهم . ولذا آمل الا تستاء الاحترامية الانجليزية خارق الاستياء اذا ما استعملت باللغة الانجليزية تعبير «المادية التاريخية» كما افعل في لغات اخرى كثيرة ، لكي اعني مفهوماً عن مجرى التاريخ العالمي يرى السبب الاول والقوة المحركة الحاسمة لجميع الاحداث التاريخية الهامة في تطور المجتمع الاقتصادي ، في تغيرات اسلوب الانتاج والتبادل ، في انقسام

---

* – بصورة مجردة الناشر

** – بصورة ملموسة ، عملياً . الناشر .

المجتمع الى طبقات مختلفة من جراء ذلك ، في الصراع بين هذه الطبقات

ولربما القى مزيداً من التساهل اذا ما برهنت ان المادية التاريخية تستطيع ان تفيد حتى الاحترامية البريطانية . ولقد سبق لى ان اشرت الى واقع ان الاجنبي المثقف الذي كان ، لنحو اربعين او خمسين سنة خلت ، ينتقل الى انجلترا ليقيم فيها ، كان يترك في نفسه اثراً غير مستطاب ما كان لا بد ان يبدو له من جانب الطبقة المتوسطة المحترمة الانجليزية تظاهراً بالتقوى او حماقة ولكني سابين الان ان الطبقة المتوسطة الانجليزية المحترمة لم تكن في ذلك العهد حمقاء بالقدر الذي كانت تبدو فيه للمثقف الاجنبي . فلنزعات هذه الطبقة الدينية تفسيرها

عندما خرجت اوروبا من القرون الوسطى ، كانت الطبقة المتوسطة النامية في المدن تشكل العنصر الثوري في هذه القرون فان الوضع المعترف به الذي كانت هذه الطبقة قد اكتسبته في النظام الاقطاعي في القرون الوسطى ، غدا ضيقاً جداً لقدرتها على التوسع . وقد اصبح تطور الطبقة المتوسطة ، تطور البرجوازية ، غير متلائم مع النظام الاقطاعي ، ولذا كان لا بد ان يسقط النظام الاقطاعي .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت مركز الاقطاعية العالمي الكبير . فرغم جميع الحروب الداخلية ، كانت تضم اوروبا الغربية الاقطاعية كلها في كل سياسي كبير ، مضاد لعالم الروم الارثوذكسيين المنشقين (٤٤) وللعالم الاسلامي على السواء . وقد توجت النظام الاقطاعي بهالة من النعمة الالهية . ووضعت تسلسل المراتب الكهنوتية وفقاً للنموذج الاقطاعي ، وكانت اخيراً اكبر سيد اقطاعي ، لانها كانت تملك ما لا يقل عن ثلث الاراضى في البلدان

الكاثوليكية وقبل شن النضال الناجح ضد الاقطاعية الزمنية في كل بلد وفي مختلف مجالاتها ، كان ينبغي تحطيم منظمتها المركزية المقدسة هذه .

والى جانب نمو الطبقة المتوسطة ، كان العلم يتطور بخطى العمالقة ومن جديد ، عني بدراسة علم الفلك ، والميكانيك ، والفيزياء ، وعلم التشريح ، والفيزيولوجيا . وقد كانت البرجوازية ، لاجل تطوير صناعتها ، بحاجة الى علم يبحث في خصائص الاجسام الطبيعية ومظاهر فعل قوى الطبيعة . وحتى ذلك الحين ، كان العلم خادم الكنيسة الوضيع ، كما ان الكنيسة لم تسمح له اطلاقا بتخطى الحدود التي رسمها الدين ؛ ولهذا السبب كان العلم اي شيء تشاء ، الا انه لم يكن علما . اما الآن فقد ثار العلم على الكنيسة ؛ ولما كانت البرجوازية بحاجة الى العلم ، فقد اشتركت في هذه الثورة

وهكذا ، لم اتناول الا نقطتين من النقاط التي كان لا بد للطبقة المتوسطة النامية من ان تصطدم عندها بالكنيسة القائمة الا ان ذلك سيكون كافيا للبرهان ، اولا ، على ان هذه الطبقة بالذات ونعني بها البرجوازية كانت تشترك ، بصورة انشط من غيرها ، في النضال ضد مطامع الكنيسة الكاثوليكية ، وللبرهان ، ثانيا ، على ان كل نضال ضد الاقطاعية كان لا بد له ان يرتدي في ذلك العهد لباسا دينيا ، وكان لا بد ان يتجه ضد الكنيسة بالدرجة الاولى . ولكن اذا كان النداء الكفاحي قد ارتفع من الجامعات ومن التجار واصحاب الاعمال في المدن ، فقد كان يلاقي ، حتما ، صدى قويا بين جماهير سكان الريف ، بين الفلاحين ، الذين كانوا في كل مكان يخوضون نضالا ضاريا ضد اقطاعييهم الروحيين والزمنيين ، ناهيك بانه كان نضالا من اجل البقاء بالذات .

وقد بلغ نضال البرجوازية الاوروبية الطويل ضد الاقطاعية ذروته في ثلاث من المعارك الكبيرة الحاسمة .

المعركة الاولى هي ما يسمى بالاصلاح البروتستانتي في المانيا . فاستجابة لدعوة لوتر الى النضال ضد الكنيسة ، شبت انتفاضتان سياسيتان : في البدء انتفاضة النبلاء الصغار بقيادة فرانتس فون زيكينغن (عام ١٥٢٣) ، ثم حرب الفلاحين الكبيرة عام ١٥٢٥ . وقد قُمعت الانتفاضتان ، خصوصاً من جراء تذبذب برجوازية المدن ، اي الحزب الذي كانت له المصلحة الكبرى فيهما ؛ وليس بوسعنا ان نبحث هنا اسباب هذا التذبذب . ومذ ذاك ، تحول النضال الى عراك بين الامراء المحليين والسلطة المركزية ، وانتهى بامحاء المانيا ، طوال قرنين ، من بين الامم الاوروبية التي تضطلع بدور سياسي نشيط بيد ان الاصلاح اللوتري اقام فيها مع ذلك ديناً جديداً ، هو بالذات ذلك الدين الذي كانت الملكية المطلقة بحاجة اليه ولم يعتنق الفلاحون في شمال شرقي المانيا اللوترية حتى تحولوا من اناس احرار الى اقنان .

ولكن كالفن احرز النصر حيث اخفق لوتر . فان عقيدة كالفن كانت تستجيب لمطالب القسم الاكثر جرأة من البرجوازية في ذلك العهد . فان مذهبه القائل بالقضاء والقدر كان التعبير الديني لكون النجاح والافلاس في عالم التجارة والمزاحمة لا ينجمان عن نشاط الافراد او مهارتهم ، بل عن ظروف مستقلة عنهم . والشيء المحدّد ليس ارادة او فعل اي فرد ، انما رحمة قوى اقتصادية جبارة الا انها مجهولة . وقد كان ذلك صحيحاً بخاصة في زمن الانقلاب الاقتصادي ، حين كانت جميع الطرق التجارية القديمة والمراكز التجارية القديمة تزيحها طرق ومراكز جديدة ، وحين اكتشفت اميركا والهند ، وحين تداعى وانهار حتى اقدس رمز للايمـــان

اقتصادي – ونعني به قيمة كل من الذهب والفضة . وبالاضافة الى ذلك كانت بنية كنيسة كالفن ديموقراطية وجمهورية اطلاقا ؛ وحيث اضفي على مملكة الله طابع جمهوري ، هل كان ثمة بالامكان ان تبقى ممالك الارض امينة للملوك والاساقفة والاقطاعيين ؟ وحين اصبحت اللوترية في المانيا اداة طيعة في ايدي الامراء ، اسست الكالفينية جمهورية في هولندا واحزابا جمهورية نشيطة في انجلترا ولا سيما في اسكتلنده .

ان الانتفاضة الكبرى الثانية التي قامت بها البرجوازية وجدت في الكالفنية مذهبا كفاحيا جاهزاً . وقد جرت هذه الانتفاضة في انجلترا . وكانت الطبقة المتوسطة في المدن اول من اندفع فيها ، وقد انتصرت هذه الانتفاضة بفضل اشتراك الفلاحين المتوسطين في المناطق الريفية . ومن الطريف ان الفلاحين كانوا الجيش المقاتل في الانتفاضات البرجوازية الثلاث الكبرى جميعها ، وانهم هم بالذات كانوا الطبقة التي كانت تصاب حتماً بالخراب والدمار ، بعد الانتصار الذي ظفرت به ، من جراء عواقب هذا الانتصار الاقتصادية . وقد زال الفلاحون المتوسطون الانجليز كلياً تقريباً بعد كروموبل بقرن واحد . ولكن ، لولا تدخل هؤلاء الفلاحين المتوسطين وعنصر العامة في المدن ، لما امكن السير بالنضال الى نهايته الاخيرة الحاسمة ولما اعدم شارل الاول ، على المقصلة ، الامر الذي لم يكن بوسع البرجوازية وحدها القيام به يوماً . ولكي تستطيع البرجوازية ان تحصل ولو على ثمار الانتصار التي كانت آنذاك ناضجة تماما لقطفها – كان ينبغي ان تتخطى الثورة هذا الهدف الى حد كبير ؛ تماما كما في فرنسا عام ١٧٩٣ ، وفي المانيا عام ١٨٤٨ . ويبدو ان في هذا ، في الواقع ، قانونا من قوانين تطور المجتمع البرجوازي .

وكان لا بد لهذا الغلو في النشاط الثوري ان تعقبه ردة رجعية تجاوزت بدورها النقطة التي لم يكن بوسعها هي ان تبقى وراءها وبعد جملة من الذبذبات ، استقر اخيراً مركز الثقل الجديد ، وغدا هذا المركز نقطة انطلاق للتطور اللاحق . وانتهت المرحلة الرائعة في التاريخ الانجليزي التي اطلقت الاحترامية عليها اسم «العصيان الكبير» والمعارك التي عقبته ، بحدث حقير نسبياً وقع في ١٦٨٩ ، ويسميه المؤرخون الليبراليون بـ«الثورة المجيدة» (٤٥)

كانت نقطة الانطلاق الجديدة مساومة بين الطبقة المتوسطة النامية وبين كبار ملاكي الاراضي الاقطاعيين السابقين ان هؤلاء الملاكين ، الذين ما يزال يطلق عليهم اليـــوم كمـــا بالامس اسم الاريستقراطية ، كانوا منذ وقت طويل بسبيل ان يصبحوا ما لم يصبحه لويس فيليب في فرنسا الا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن ، اي «البرجوازي الاول في المملكة» . ولحسن حظ انجلترا ان البارونات الاقطاعيين القدماء قد تذابحوا خلال حرب الوردتين (٤٦) اما اخلافهم ، الذين انحدروا بعامة من هذه الاسر القديمة ، فان فروعهم قد ابتعدت ، مع ذلك ، عن الاصل الى حد انهم شكلوا فئة جديدة تماماً ؛ وكانت عاداتهم ومطامحهم برجوازية اكثر بكثير مما هي اقطاعية كانوا يعرفون تمام المعرفة قيمة المال فشرعوا فوراً في زيادة الريع العقاري ، طاردين المئات من صغار المستاجرين من الارض ، ومستعيضين عنهم بالاغنام ثم ان هنري الثامن خلق طائفة واسعة جداً من اسياد الاراضي الجدد من بين البرجوازيين عن طريق توزيع املاك الكنيسة بسخاء او بيعها بثمن بخس ؛ والى نفس النتيجة ادت المصادرات التي لا عد لها للاملاك الكبيرة والتي استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر ، وكانت هذه الاملاك تعطى من جديد لحديثي النعمة ، من كل شاكلة وطراز ، بمعنى

هذه الكلمة المباشر او المجازي . ولذا ، لم تعارض «الاريستقراطية» الانجليزية ،منذ عهد هنري السابع ، تطور الانتاج الصناعي ، بل سعت بالعكس الى الاستفادة منه بصورة غير مباشرة . وقد كان هناك ايضا على الدوام قسم من الملاكين العقاريين الكبار مستعد ، لاسباب اقتصادية او سياسية ، للتعاون مع زعماء البرجوازية المالية والصناعية وهكذا امكن ان تتم مساومة عام ١٦٨٩ بسهولة فقد تركت الغنيمة السياسية ـ المناصب الرابحة والدائمة ـ لملاكي الاراضي النبلاء ، شرط احترام ما للطبقة المتوسطة المالية والصناعية والتجارية من مصالح اقتصادية . وقد كانت هذه المصالح الاقتصادية قوية في ذلك العهد الى حدّ السيطرة على سياسة الامة العامة . كانت ثمة ، بالطبع ، مشاحنات حول هذه المسالة او تلك ، ولكن الطغمة الاريستقراطية كانت تدرك تمام الادراك ان ازدهارها الاقتصادي مرتبط بصورة لا تنفصم عراها بازدهار الطبقة المتوسطة الصناعية والتجارية

ومنذ ذلك الحين ، غدت البرجوازية جزءاً اصيلا ، وضيعا من الطبقات الحاكمة في انجلترا ، ولكنه جزء معترف به ، وله مع سائر الاجزاء مصلحة في اخضاع الجماهير الشعبية الكادحة الغفيرة . فالتاجر او الصناعي شغل مركز رب العمل او ، كما كان يقال في انجلترا منذ زمن غير بعيد ، «الرئيس الامر الطبيعي» ازاء مستخدميه وعماله وخدمه وكانت مصلحته تقضي عليه بان يبتز منهم اكبر قدر ممكن من العمل واحسنه بقدر الامكان ؛ ولهذ الغرض كان ينبغي له ان يعودهم على الرضوخ اللازم . وكان ، هو نفسه ، متدينا ؛ وكان دينه قد اعطاه راية تغلب تحتها على الملك والاسياد . وسرعان ما اكتشف ايضا في هذا الدين وسيلة لكي يكيف عقول رعاياه الطبيعيين ولكي يجعلهم طيعين لاوامر

ارباب العمل الذين وضعتهم عناية الله المجهولة فوقهم . وبايجاز ، اصبح البرجوازي الانجليزي منذ ذلك الوقت يشارك في قمع «الفئات الدنيا» – في اضطهاد الجماهير الشعبية الغفيرة المنتجة . – وكان تاثير الدين وسيلة من الوسائل المستخدمة في هذه الاغراض

وثمة امر آخر اسهـــم في تعزيز النزعة الدينية عنـــد البرجوازية ، هو ازدهار المادية في انجلترا فان هذا المذهب الجديد لم يكن ليثير ذعر الطبقة المتوسطة التقية وحسب ، بل انه اعلن نفسه ايضا ، في آخر المطاف ، الفلسفة الوحيدة الملائمة للناس المتعلمين وللمثقفين العلمانيين ، وذلك على نقيض الدين الذي يصلح تماما للجماهير غير المتعلمة ، بما فيها البرجوازية ومع هوبس ، برز هذا المذهب على المسرح ، مدافعا عن الامتيازات الملكية وعن الحكم المطلق ، ودعا الملكية المطلقة الى ترويض هذا puer robustus sed malitiosus • ، اي الى ترويض الشعب كذلك كان الامـــر مع اتبـــاع هوبس ، مع بولينغبروك ، وشافتسبيري ، وغيرهما ؛ فان الشكل الجديد من المادية اي التاليه السببي ، ظل مذهبا اريستقراطيا ، مغلقا خفيا ، ولذا كانت تكرهه الطبقة المتوسطة ، لا لهرطقاته الدينية وحسب ، بل ايضا لعلاقته بالاتجاه السياسي المعادي للبرجوازية . ولذا ، بوجه هذه المادية وهذا التاليه السببي الاريستقراطيين ، تبين ان الشيع البروتستانتية بالذات ، التي كانت تقدم الراية والمحاربين في النضال ضد آل ستوارت ، كانت تقدم ايضا القوى المحاربة الرئيسية للطبقة المتوسطة التقدمية وما تزال تشكل اليوم العمود الفقري «للحزب الليبرالي الكبير»

• – هذا الولد القوي ، ولكنه الخبيث . من مقدمة هوبس لكتابه «من المواطن» . الناشر .

خلال هذه الحقبة ، انتقلت المادية من انجلترا الى فرنسا حيث التقت مدرسة فلسفية مادية اخرى ، هي فرع من الفلسفة الكارتيزية (٤٧) ، واندمجت معها في بادئ الامر ، ظلت المادية في فرنسا ايضا مذهبا اريستقراطيا بوجه الحصر ولكن طابعها الثوري برز بسرعة ولم يقصر الماديون الفرنسيون انتقادهم على حقل الدين ، بل انتقدوا ايضا كل تقليد علمي وكل مؤسسة سياسية في زمنهم . ولكي يثبتوا ان نظريتهم ذات تطبيق شامل ، اختاروا طريقا مختصرا ، اذ طبقوها بشجاعة على جميع مواضيع المعرفة في مؤلف عملاق اخذوا اسمه ، هو «الانسيكلوبيديا» . وهكذا غدت المادية بهذا الشكل او ذاك من شكليها ، المادية السافرة او التاليه السببي ، ـ مذهب كل الشبيبة المتعلمة في فرنسا ، وكان نفوذ هذا المذهب كبيرا الى حد انه ، وهو الذي حضنه الملكيون في انجلترا ، قد اعطى الجمهوريين وانصار الارهاب الفرنسيين راية نظرية اثناء الثورة الكبرى ، وقدم نص «اعلان حقوق الانسان» (٤٨)

وقد كانت الثورة الفرنسية الكبرى الانتفاضة الثالثة التي قامت بها البرجوازية ، ولكنها كانت اول انتفاضة خلعت عن نفسها الزي الديني كليا ، وجرى النضال فيها على صعيد سياسي سافر . وكانت ايضا اول انتفاضة سار النضال فيها حتى النهاية بالفعل ، حتى القضاء على احد الطرفين المتحاربين ، الاريستقراطية، قضاء تاما ، وحتى انتصار الطرف الآخر ، البرجوازية ، انتصارا نهائيا في انجلترا تجسدت الصلة المستمرة بين مؤسسات ما قبل الثورة وما بعدها ، والمساومة بين ملاكي الاراضي الكبار والرأسماليين ، في استمرار السوابق الحقوقية وفي الاحتفاظ باشكال القانون الاقطاعية باحترام واجلال . اما في فرنسا فقد

قطعت الثورة قطيعة نهائية مع تقاليد الماضي ، وكنست آخر آثار الاقطاعية ، وكيفت في Code civil (٤٩) بمهارة على الاوضاع الرأسمالية المعاصرة القانون الروماني القديم – وهو تعبير كامل تقريبا عن العلاقات الحقوقية المطابقة لمرحلة التطور الاقتصادي التي يسميها ماركس بالانتاج البضاعي ، – بدرجة من المهارة لا تزال معها الآن ايضا هذه المجموعة الثورية الفرنسية من القوانين قدوة ومثالا لاصلاح قوانين المُلكية في جميع البلدان الاخرى ، بما فيها انجلترا بيد انه يترتب علينا الا ننسى الامر التالي اذا كان القانون الانجليزي ما يزال يعبر عن علاقات المجتمع الرأسمالي الاقتصادية في هذه اللغة البربرية الاقطاعية التي تنطبق على الشيء المعبر عنه بالقدر الذي تنطبق به الكتابة الانجليزية على اللفظ الانجليزي – قال فرنسي : vous écrivez Londres et vous prononcez Constantinople • – فـــان هذا القانـــون الانجليزي نفسه هو ايضا القانون الوحيد الذي حفظ عبر القرون بلا تشويه ونقل الى اميركا والى المستعمرات خير قسم من الحريات الالمانية القديمة – وهي الحرية الشخصية والحكم الذاتي المحلي ، والضمانة دون كل تدخل ، باستثناء تدخل المحاكم القضائية ، – بينما زالت تماما هذه الحريات في القارة خلال عهد الملكيات المطلقة ، ولم تتم حتى الآن اعادتها بكاملها في اي مكان كان .

ولكن ، لنعد الى صاحبنا البرجوازي البريطاني فان الثورة الفرنسية اتاحت له فرصة رائعة لتحطيم التجـــارة البحرية الفرنسية بمساعدة الملكيات القارية ، وللاستيلاء على المستعمرات الفرنسية ولسحق آخر مطامح فرنسا الى المنافسة البحرية .

• – انك تكتب لندن وتلفظ القسطنطينية . الناشر .

وهذا سبب من الاسباب التي حملت البرجوازي البريطاني على محاربة هذه الثورة اما السبب الثاني ، فهو ان اساليب هذه الثورة لم تكن ترضيه اطلاقا فلم يكن يرضيه لا ارهاب الثورة «القبيح» ، ولا محاولة الثورة لبسط سيطرة البرجوازية بصورة مطلقة . وما عسى ان يعمل البرجوازي البريطاني دون اريستقراطيته التي كانت تعلمه آداب المعاشرة ، — وهي آداب جديرة بمعلمه ، — والتي كانت تخترع له موضه ، وتقدم له ضباطا للجيش الذي يحافظ على النظام داخل البلاد ، وضباطا للاسطول الذي يستولي على مستعمرات جديدة واسواق جديدة في الخارج ؟ صحيح انه كانت ثمة اقلية تقدمية من البرجوازية لم تكن مصالحها تكسب كثيراً من المساومة . وهذه الاقلية ، المؤلفة بصورة رئيسية من فئات من الطبقة المتوسطة اقل يسراً ، عطفت على الثورة ، ولكنها كانت عاجزة في البرلمان

وهكذا ، كلما غدت المادية اكثر فاكثر رمز ايمان الثورة الفرنسية ، كلما تعاظم تمسك البرجوازي الانجليزي بدينـــه ، وهو العائش في خوف الله . الم يبين عهد سيطرة الارهاب (٥٠) في باريس الى ما تؤول الامور اذا فقد الشعب مشاعره الدينية ؟ وكلما انتشرت المادية وانتقلت من فرنسا الى البلدان المجاورة وعززتها تيارات نظرية مماثلة ، ولا سيما الفلسفة الالمانية ، وكلما غدت المادية وغدا الفكر الحر على العموم فى القارة الصفتين المطلوبتين من كل انسان مثقف ، ازدادت الطبقة المتوسطة الانجليزية تمسكا بنحلها الدينية المتنوعة كانت هذه النحل مختلفة جداً ، الا انها كانت تتسم جميعها بطابع ديني ومسيحي واضح .

وبينما كانت الثورة قد امّنت في فرنسا انتصار البرجوازية السياسي ، شرع واط واركرايت وكارترايت وغيرهم في انجلترا بثورة صناعية نقلت كلياً مركز ثقل القوى الاقتصادية فقد اخذت ثروة البرجوازية تنمو الآن باسرع بما لا يقاس من نمو ثروة الاريستقراطية العقارية وفي صفوف البرجوازية نفسها ، قذف اصحاب الفبارك اكثر فاكثر بالاريستقراطية المالية واصحاب المصارف ، الخ ، الى المرتبة الثانية . ولم تبق مساومة ١٦٨٩ منطبقة على نسبة القوى بين المشتركين في هذه المساومة ، رغم ما طرأ عليها من تعديلات تدريجية في صالح البرجوازية . كذلك تعدل طابع المشتركين ؛ فان برجوازية ١٨٣٠ كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن برجوازية القرن السابق فان بقاء السلطة السياسية في ايدي الاريستقراطية التي كانت تستخدمها للوقوف بوجه مطامع البرجوازية الصناعية الجديدة ، لم يبق متلائماً مع المصالح الاقتصادية الجديدة ولذا كان لا بد من استئناف النضال ضد الاريستقراطية ، وكان لا بد لهذا النضال من ان ينتهي بانتصار القوة الاقتصادية الجديدة . في بادئ الامر اجري الاصلاح البرلماني (٥١) رغم جميع المعارضات ، وبفضل تاثير ثورة ١٨٣٠ الفرنسية . وقد اكسب هذا البرجوازية مكانة كبيرة ومعترفا بها في البرلمان . ثم الغيت القوانين على الحبوب ، مما امن الى الابد تفوق البرجوازية على الاريستقراطية العقارية ، ولا سيما تفوق قسمها الاوفر نشاطا ، اصحاب الفبارك وكان ذلك اعظم انتصار احرزته البرجوازية ، ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، آخر انتصار احرزته في صالحها وحدها دون غيرها . فقد اضطرت ، فيما بعد ، الى ان تقتسم جميع انتصاراتها الاخرى مع

قوة اجتماعية جديدة، كانت في البدء حليفة لها ، ثم غدت منافسة لها

ذلك ان الثورة الصناعية لم تؤد الى نشوء طبقة من اصحاب الفبارك الرأسماليين الكبار فحسب ، بل ادت ايضا الى نشوء طبقة من عمال الفبارك اوفر عدداً بكثير . وكانت هذه الطبقة تنمو عددياً بقدر ما كانت الثورة الصناعية تشمل فرعا تلو آخر من الانتاج . وكانت قوتها تزداد مع ازدياد عددها ، وقد برزت هذه القوة في عام ١٨٢٤ ، حين اجبرت برلمانا عنيداً متعنتاً على الغاء القوانين التي تحرم الجمعيات العمالية (٥٢) وخلال الدعاية من اجل الاصلاح ، شكل العمال الجناح الراديكالي في حزب الاصلاح وحاء قانون عام ١٨٣٢ وحرمهم من حق الاقتراع ، فصاغوا مطالبهم في ميثاق الشعب (٥٣) ، وانتظموا في حزب مستقل ، هو الحزب الشارتي (٥٤) ، الذي كان اول حزب عمالي في ايامنا ، وذلك لمعارضة العصبة البرجوازية القوية التي طالبت بالغاء القوانين على الحبوب

ثم انفجرت الثورات في القارة ، في شباط وآذار (فبراير ومارس) ١٨٤٨ ، وقد اضطلع العمال فيها بدور بارز ، وصاغوا فيها ، في باريس على الاقل ، مطالب كانت ، بكل تاكيد ، غير مقبولة من وجهة نظر المجتمع الرأسمالي . وعقب ذلك ، قامت ردة رجعية عامة كان من نتائجها اولا هزيمة الشارتيين في ١٠ نيسان (ابريل) ١٨٤٨ (٥٥) ، ثم سحق انتفاضة العمال الباريسيين في حزيران (يونيو) من نفس السنة ؛ ثم هزائم ١٨٤٩ في ايطاليا والمجر والمانيـــا الجنوبية ، واخيراً انتصار لويس بونابرت على باريس ، في ٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ (٥٦) . وهكذا امكن الخلاص من المطالب العمالية ، من

هذه الفزاعة الرهيبة ، وان لفترة من الزمن ، ولكن باي ثمن ! فاذا كان البرجوازي البريطاني قد اقتنع فيما مضى بانه ينبغي اخضاع الشعب البسيط بواسطة الدين ، فباي مزيد من القوة كان لا بد له من ان يشعر بضرورة ذلك بعد كل ما عاناه ! ولذا استمر البرجوازي البريطاني ينفق الآلاف وعشرات الآلاف ، وسنة اثر سنة ، في سبيل التبشير بالانجيل في صفوف الفئات الدنيا ، دون أن يتنازل ويلقي بالا لسخريات زملائه القاريين . ولم يكتف بآلته الدينية فاستنجد «بالاخ جوناثان» اي باحذق واكبر مضارب في حقل الدين واستورد من اميركا يقظة (revivalism) (٥٧) مودي وسانكي وامثالهما ، بل انه قبل اخيراً المساعدة الخطرة التي اسداها «جيش الخلاص» الذي يعيد اشكال الدعاية التي لجات اليها المسيحية البدائية ، ويتوجه الى الفقراء بوصفهم اناساً اختارهم الله ، ويكافح الراسمالية بطريقته الدينية ، ويطور بالتالي عناصر من النضال الطبقي المسيحي البدائي من شانها ان تثير ذات يوم الكثير من القلق بين الاثرياء الذين يقدمون المال الآن لهذا الغرض .

يبدو ان من قوانين التطور التاريخي الا تتمكن البرجوازية ، في اي بلد من بلدان اوروبا ، من الاستيلاء على السلطة السياسية بلا منازع ، — لزمن طويل كفاية على الاقل — كما فعلت الاريستقراطية الاقطاعية في القرون الوسطى وحتى في فرنسا ، حيث استؤصلت الاقطاعية من عميق جذورها ، لم تستول البرجوازية ، بوصفها طبقة ، على الحكم بكامله ، الا خلال حقبات قصيرة من الزمن . ففي عهد لويس فيليب ، (١٨٣٠—١٨٤٨) ، حكمت فئة صغيرة من البرجوازية ، وحرمت فئتها الاكثر عدداً بكثير من حقوق الاقتراع بواسطة نصاب انتخابي عال جداً . وفي

عهد الجمهوزية الثانية (١٨٤٨-١٨٥١) ، حكمت البرجوازية باسرها ، ولكن لمدة ثلاث سنوات فقط ؛ وقد ادى عجزها الى الامبراطورية الثانية والآن فقط ، في عهد الجمهورية الثالثة ، احتفظت طبقة البرجوازية باسرها بالسلطة خلال عشرين سنة ؛ وها انه تبدو عليها الآن علائم انحطاط تجلب السرور وحتى الآن لم تستطع البرجوازية ان تبسط سيادتها لمدة طويلة الا في بلدان كاميركا ، حيث كانت الاقطاعية غير معروفة ، وحيث تشكل المجتمع ، منذ البدء ، على الاساس البرجوازي ولكن خلفاء البرجوازية ، العمال ، يقرعون الباب بشدة حتى في فرنسا ولميركا

ان البرجوازية لم تملك قط السلطة في انجلترا دون منازع حتى ان انتصارها في عام ١٨٣٢ ترك في ايدي الاريستقراطية جميع المناصب الحكومية الرئيسية تقريبا لقد استعصى علي فهم الضعة التي قبلت بها الطبقة المتوسطة الغنية هذا الوضع الى ان سمعت صناعيا ليبراليا كبيراً ، اسمه و . أ . فورستر ، يلقي خطاباً امام الشباب في برادفورد ويتوسل فيه اليهم ان يتعلموا اللغة الفرنسية بوصفهـا وسيلة للمرء كي يشق طريقه في الحياة ؛ وقد استشهد بتجربته الخاصة وروى قصة اضطرابه وتلبكه عندما دخل فجاة ، بوصفه وزيراً ، في مجتمع كانت اللغة الفرنسية ضرورية فيه على الاقل بقدر مـا هي عليه اللغة الانجليزية ! وبالفعل ، كان ممثلو الطبقة المتوسطة الانجليزية عادة في ذلك العهد حديثي النعمة ، عديمي الثقافة تماما ، وكان لا بد لهم ، سواء شاؤوا ام ابوا ، ان يتركوا للاريستقراطية جميع المناصب الحكومية العليا ، حيث كان من الضروري ان يتمتع المرء بصفات غير ضيق الفكر الجزائري والعجرفـة

الجزائرية ، المجملين بالمهارة في الاعمال • بل ان المناقشات اللامتناهية التي تجري اليوم على صفحات الجرائد حول التعليم البرجوازي (middle-class education) ، تثبت ان الطبقة المتوسطة الانجليزية لا تعتبر نفسها صالحة كفاية لتوفير ثقافة عالية ، وتطمع بشيء اكثر تواضعاً ولذا بدا من الطبيعي تماماً ، حتى بعد الغاء القوانين على الحبوب ، ان استبعد اولئك

• ثم ان الفطرسة الشوفينية القومية هي نصيح رديء جداً في ميدان الاعمال ايضاً فحتى الآونة الاخيرة ، كان الصناعي الانجليزي العادي يعتبر انه من المهين للانجليزي ان يتكلم بلغة غير لغته ، وكان يتفاخر الى حد ما بان «المساكين» الاجانب يقيمون في انجلترا ويعفونه من مؤونة تصريف منتوجاته في الخارج . بل انه لم يلاحظ ان هؤلاء الاجانب ، الذين كانوا بمعظمهم من الالمان ، قد وضعوا يدهم ، بفضل ذلك ، على قسم كبير من التجارة الخارجية البريطانية ، سواء في حقل الصادرات ام في حقل الواردات ، وان التجارة الخارجية البريطانية المباشرة اخذت تقتصر تدريجياً على المستعمرات والصين والولايات المتحدة واميركا الجنوبية وكذلك لم يلاحظ ان هؤلاء الالمان كانوا يتاجرون مع المان آخرين خارج الحدود ، وان هؤلاء الاخيرين شكلوا مع مر الزمن شبكة كاملة من المستعمرات التجارية في عموم الكرة الارضية . ولكن عندما قررت المانيا منذ اربعين سنة تنتج بصورة جدية من اجل التصدير ، قدمت لها هذه الشبكة من المستعمرات خدمة ممتازة لاجل تحويلها في اجل قصير جداً من بلد يصدر الحبوب الى بلد صناعي من الدرجة الاولى . وآنذاك ، اي منذ عشر سنوات ، تملك القلق الصناعي الانجليزي في آخر المطاف ، فطلب من سفرائه وقناصله ان يبينوا له كيف حدث له انه لم يبق في مستطاعه ان يحتفظ بزبائنه فجاء الجواب بالاجماع :١ ــ انت لا تتعلم لغة زبائنك ، بل تطالب بان يتكلموا بلغتك ٢ ــ انت لا تحاول ان تلبي حاجات زبائنك وعاداتهم واذواقهم ، وليس هذا وحسب ، بل تطالب ايضا بان يعملوا بموجب حاجاتك وعاداتك واذواقك ، الانجليزية .

الذين استطاعوا احراز النصر ، من امثال كوبدن ، وبرايت وفورستر ، وغيرهم عن الاشتراك رسمياً في حكم البلاد ، الى ان جاء الاصلاح البرلماني الجديد (٥٨) بعد عشرين سنة وفتح لهم ابواب مكاتب الوزراء وما تزال البرجوازية الانجليزية متشبعة حتى اليوم بشعور دونيتها الاجتماعية الى حد انها تموّل على حسابها وعلى حساب الشعب طائفة مزينة من الزنابير مهمتها تمثيل الامة تمثيلا لائقا في جميع المناسبات الرسمية ، وهي تعتبر انها حصلت على سامي الشرف حين يعتبر احد اعضائها جديراً بان يقبل في هذه الطائفة المختارة المميزة ، رغم انها صنعتها بنفسها

ولم تكد الطبقة المتوسطة الصناعية والتجارية تتوصل الى طرد الاريستقراطية العقارية من السلطة السياسية نهائياً ، حتى برز منافس جديد ، هو الطبقة العاملة الا ان الردة الرجعية التي اعقبت الحركة الشارتية والثورات القارية ، وكذلك ازدهار الصناعة الانجليزية بصورة لا سابق لها من عام ١٨٤٨ الى عام ١٨٦٦ (الازدهار المنسوب عادة الى تأثير حرية التجارة وحدها ، ولكنه الناجم ، الى حد اكبر بكثير ، عن تطور السكك الحديدية والملاحة المحيطية ووسائط النقل بوجه عام تطوراً هائلا) قد اخضعا العمال مرة اخرى لتبعية الحزب الليبيرالي الذي شكلوا فيه جناحه الراديكالي كما في الايام التي سبقت الحركة الشارتية . الا ان مطلب حق الانتخاب للعمال غدا تدريجياً مطلباً لا يقاوم . وبينما كان الزعماء الويغ (٥٩) للحزب الليبيرالي يجبنون ، اظهر دزرائيلي تفوقه ، اذ انه حمل التوري (٦٠) على استغلال الفرصة السانحة ، فادخل حق الاقتراع في الدوائر الانتخابية بالمدن لمستاجري المساكن (household suffrage) وعدل تقسيم

الدوائر الانتخابية وبعد فترة وجيزة جاء التصويت السري ؛ ثم ، في عام ١٨٨٤ ، شمل حق الاقتراع مستاجري المساكن في المقاطعات الريفية ، وطرأ تعديل جديد على تقسيم الدوائر الانتخابية جعلها متساوية نوعاً ما . وقد زادت كل هذه التدابير من القوة الانتخابية للطبقة العاملة زيادة كبيرة جداً الى حد ان العمال يشكلون الآن اكثرية المقترعين في ١٥٠ او ٢٠٠ دائرة انتخابية على الاقل ولكن ليست ثمة مدرسة لتعليم موقف الاحترام من التقاليد خيراً من النظام البرلماني ! فاذا كانت الطبقة المتوسطة تنظر باجلال واحترام الى ما كان يسميه اللورد جون مانرز مازحاً «طبقتنا النبيلة القديمة» ، فان سواد العمال كانوا يتطلعون آنذاك باحترام وتقدير الى ما كان يسمى في ذلك الوقت «بخير الطبقات» ، اي الى الطبقة المتوسطة وبالفعل ، كان العامل البريطاني ، لخمسة عشر عاماً تقريباً ، العامل النموذجي الذي كان احترامه وتقديره لصاحبه وقناعته وخجله عند المطالبة بحقوقه تصب البلسم الشافي على جراح اصحابنا الاقتصاديين الالمان من مدرسة **الاشتراكية الكراسي** (Katheder-Sozialismus) (٦١) الذين كانت تصيبهم بها النزعات الشيوعية والثورية المستعصية عند ابناء بلدهم ، اي عند العمال الالمان .

ولكن الطبقة المتوسطة الانجليزية كانت ابعد نظراً من الاساتذة الالمان ، اذ كانت تتالف من رجال اعمال اكثر براعة منهم ولم تتنازل عن قسم من سلطتها للعمال الا تحت ضغط الظروف فقد تعلمت خلال الحركة الشارتية فهم ما يستطيعه الشعب ، هذا puer robustus sed malitiosus ومنذ ذاك اضطرت الى جعل جزء كبير من مطالب ميثاق الشعب قانوناً للمملكة المتحدة . فالآن ، ينبغي ، اكثر من اي وقت مضى ،

اخضاع الشعب بوسائل معنوية واول وسيلة واهم وسيلة معنوية للتاثير في الجماهير كانت وما تزال الدين . ولهذا يسود القسس في اللجان المدرسية ، ولهذا تفرض البرجوازية على نفسها نفقات متزايدة من اجل تشجيع مذهب اليقظة بكل مظاهره وانواعه ابتداء من النظام الطقسي (٦٢) حتى «جيش الخلاص»

والآن ، احرزت الاحترامية البريطانية انتصاراً على الفكر الحر وغلى اللامبالاة الدينية عند البرجوازي القاري فقد امتلأ العمال الفرنسيون والعمال الالمان بروح التمرد . واصيبوا جميعا بوباء الاشتراكية ، وفضلا عن ذلك ، لم يكونوا يهتمون كثيراً ، لاعتبارات موزونة جداً ، بمراعاة القانون عند اختيار الوسائل للظفر بالسلطة . واخذ هذا puer robustus يزداد بالفعل malitiosus يوما بعد يوم . فلم يبق امام البرجوازية الفرنسية والبرجوازية الالمانية من وسيلة ، الا رمي فكرهما الحر خلسة الى جانب ، كما يرمي الشاب بصورة غير ملحوظة الى البحر ، حين يصاب بالدوار ، السيكار المشتعل الذي كان يزهو به على متن الباخرة . فان المجدفين على الله اخذوا ، الواحد تلو الآخر ، يتظاهرون بالتقوى ، ويتحدثون باحترام عن الكنيسة وعقائدها وطقوسها ، بل انهم اخذوا يتقيدون بها لانه كان من المستحيل تجنبها . واكتفى البرجوازيون الفرنسيون maigre* ايام الجمعة واصغى البرجوازيون الالمان ، في صبر ، الى المواعظ البروتستانتية الطويلة ايام الآحاد وهم جالسون على مقاعدهم في الكنيسة . وحلت بالبرجوازيين مصيبة بسبب ماديتهم . "Die Religion muss dem Volk erhalten werden" — «ينبغي الاحتفاظ بالدين من اجل الشعب» — هذه هي الوسيلة الاخيرة والوحيدة

* — اكل صيامي . الناشر .

لانقاذ المجتمع من الهلاك التام . ولكنهم ، لسوء حظهم ، لم يكتشفوا ذلك الا بعد ان بذلوا قصارى جهودهم لتحطيم الدين الى الابد والآن ، جاءت اللحظة التي استطاع فيها البرجوازي البريطاني بدوره ان يسخر منهم ويهتف قائلا : «ايها الاغبياء ، كان بوسعي ان اقول لكم ذلك منذ مائتي سنة !»

بيد اني اخشى ان لا تستطيع ، لا غباوة البرجوازي البريطاني الدينية ولا ارتداد البرجوازي القاري الى الدين post festum* ، ان يقيما سداً بوجه مد البروليتاريا الصاعد اعلى فاعلى ان التقليد قوة كبيرة معوّقة ، انه vis inertiae** في التاريخ ؛ ولكن ، بما انه منفعل وحسب ، فمن المؤكد تحطيمه . ولذا فان الدين ايضاً لا يسعه ان يكون سنداً للمجتمع الرأسمالي مدة طويلة واذا كانت افكارنا الحقوقية والفلسفية والدينية هي نتائج ، قريبة او بعيدة الى هذا الحد او ذاك ، للعلاقات الاقتصادية السائدة في مجتمع معين ، فلا يمكن لهذه الافكار ان تبقى طويلا بعد تغير العلاقات الاقتصادية تغيراً تاماً . ولا بد لنا إما ان نؤمن بوحي ما فوق الطبيعة ، واما ان نقر بانه ما من عقيدة دينية تستطيع ان تنقذ مجتمعاً منهاراً

وبالفعل ، اخذ العمال في انجلترا ايضا يتحركون من جديد . ولا ريب انهم مقيدون بشتى التقاليد اولا التقاليد البرجوازية ومنها هذا الوهم الواسع الانتشار والقائل انه لا يمكن ان يكون ثمة سوى حزبين ، حزب المحافظين والحزب الليبيرالي ، وانه ينبغي للطبقة العاملة ان تتوصل الى تحررها بمساعدة الحزب الليبيرالي

---

* – بعد فوات الاوان (حرفيا ، بعد العيد) . الناشر .

** – قوة الاستمرار . الناشر .

الكبير . ثانيا تقاليد العمال انفسهم ، الموروثة من ازمنة المحاولات الوجلة الاولى ، محاولات قيام الطبقة العاملة بعمل مستقل : ومن هذه التقاليد فصل جميع العمـــال الذين لم يقضوا مـدة التدريب المنتظم من التريديونيونات (النقابات) الكثيرة القديمة ، وهذا يعني فقط ان كلا من هذه النقابات تخلق لنفسها جماعة من كاسري الاضرابات . ولكن الطبقة العاملة الانجليزية تتحرك الى الامام رغم كل ذلك ، حتى أن الاستاذ برينتانو ملزم بابلاغ هذا الامـــر ، باسف ، الى زملائه في Katheder-socialisten ان الطبقة العاملة تتحرك – ككل شيء في انجلترا – بخطى بطيئة متزنة ، هنا تتردد ، وهناك تتسكع وتقوم بمحاولات وجلة وعقيمة احيانا وهي هنا وهناك ، تتحرك بغلوّ في الحذر من كلمة «الاشتراكية» ، في حين انها تمتص تدريجيا جوهر الاشتراكية انها تتحرك ، وها هي حركتها تمتد وتشمل الفئات العمالية ، الواحدة تلو الاخرى . وقد هزت هذه الحركة في الوقت الحاضر فعلة ايست-اند (٦٣) في لندن وايقظتهم من خمودهم ، فرأينا اية دفعة رائعة اطلقتها هذه القوى الجديدة بدورها في الطبقة العاملة واذا كانت هذه الحركة لا تسير بالسرعة التي يرغب فيها بعضهم من فاقدي الصبر ، فلا ينسونّ ان الطبقة العاملة هي التي تصون خير صفـــات الطبـــع الانجليزي القومي ، وانه حين تتم خطوة الى الامام في انجلترا ، فانها ، على العموم ، لا تذهب ابداً هباء . واذا كان ابناء الشارتيين القدماء ، للاسباب المذكورة اعلاه ، غير مـــا كان من الممكـــن انتظاره ، فان احفادهم سيكونون ، على ما يبـــدو ، جديـــرين باجدادهم

بيد ان انتصار الطبقة العاملة الاوروبية لا يتوقف على انجلترا فقط : فلن يمكن احراز هذا الانتصار الا بتضافر جهود انجلترا

وفرنسا والمانيا (٦٤) على الاقل . فان الحركة العمالية في فرنسا والمانيا تسبق كثيرا الحركة العمالية في انجلترا بل انه يمكن تعيين موعد انتصارها في المانيا فان النجاحات التي احرزتها هناك الحركة العمالية خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة لا سابق لها . فهي تتقدم بسرعة نامية ابداً واذا كانت الطبقة المتوسطة الالمانية قد اظهرت حقارة يرثى لها ، وانعدام الكفاءات السياسية والروح النظامي والجراة والعزيمة والمثابرة ، فان الطبقة العاملة الالمانية قد بينت تماما انها تملك جميع هذه الصفات بصورة كافية . لقد كانت المانيا ، منذ اربعمئة سنة تقريبا ، نقطة الانطلاق لاول انتفاضة كبيرة قامت بها الطبقة المتوسطة الاوروبية ؛ وفي الطور الذي بلغته الاحداث الآن ، هل من خارج حدود الامكان ان تصبح المانيا ايضا مسرحا لاول انتصار كبير تحرزه البروليتاريا الاوروبية ؟

ف . انجلس

٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٩٢

صدر في كتاب : Frederick Engels. „Socialism Utopian and Scientific". London, 1892
ومع بعض الاختصارات بترجمة المؤلف الى الالمانية في مجلة „Die Neue Zeit" («دي نويه زايت») ، المجلد ١ ، العددين ١ و٢ ، ١٨٩٢–١٨٩٣

يصدر حسب نص الكتاب . تمت الترجمة نقلا عن الانجليزية

الاشتراكية الطوبوية والاشتراكية العلمية

ان الاشتراكية العصرية ، من حيث مضمونها هي ، في المقام الاول ، نتيجة لملاحظة التناقضات الطبقية السائدة في المجتمع العصري بين المالكين وغير المالكين ، بين الرأسماليين والعمال الاجراء ، من جهة ، ولملاحظة الفوضى السائدة في الانتاج من جهة اخرى ولكن هذه الاشتراكية تبدو في البدء ، من حيث شكلها النظرى ، كانها مجرد استمرار ، اكثر تطوراً وانسجاماً ، للمبادئ التي صاغها المنورون الفرنسيون الكبار في القرن الثامن عشر وكان لا بد لها ، ككل نظرية جديدة ،من ان تنطلق قبل كل شيء من المادة الفكرية المكدسة سابقاً ، رغم انها تمد جذورها عميقاً في ميدان الوقائع المادية الاقتصادية

ان الرجال العظام الذين إناروا الرؤوس في فرنسا من اجل الثورة التي كانت تقترب ، كانوا ايضاً ثوريين للغاية . فلم يقروا باي سلطة خارجية وخضع الدين ، والطبيعة ، والمجتمع ، ونظام الدولة – وكل شيء ، لاقسى ما يكون من الانتقاد ؛ واضطر كل شيء الى المثول امام محكمة العقل لكي يبرر وجوده او لكي يزول من الوجود . وغدا العقل المفكر المقياس الوحيد لكل ما

هو موجود . وكان ذلك في زمن انتصب فيه العالم على الرأس * على حد قول هيغل ، اولا بمعنى ان الراس والمبـــادئ التـــي توصل اليها عن طريق الفكر كانت تدعي انها وحدها جديرة بان تتخذ اساسا لكل اعمال الانسان ولكل العلاقات الاجتماعية ، وفيما بعد ، بمعنى اوسع ، بمعنى ان الواقع المخالف لهذه المبادئ قد قُلب ، في واقع الامر ، راسا على عقب . فان جميع اشكال المجتمع والدولة السابقة ، وجميع المفاهيم التقليدية قد اعتبرت غير معقولة وطرحت جانبا بوصفها عفاشة قديمة ؛ لقد سار العالم حتى ذاك وراء الاوهام وحدها ، وكل الماضي لا يستحق غير الشفقة والازدراء والآن بـزغت الشمس للمـــرة الاولى وقـــامت سيادة العقل . فان الاوهام ، والجور ، والامتيازات ، والاضطهاد ،

---

* اليكم ما يقوله هيغل عن الثورة الفرنسية «ان فكرة الحق ، مفهومه ، قد احرزت الغلبة من الوهلة الاولى ، ولم يكن بوسع دعائم الاستبداد المتداعية ان تبدي بوجهها اي مقاومة وعلى فكرة الحق بني الدستور ، وعليها كان ينبغي ان يرتكز كل شيء من الآن وصاعداً ومنذ ان شرعت الشمس تشع في السماء وشرعت الكواكب تدور حولها ، لم ير احد انسانا ينتصب على رأسه ، اي يعتمد على الفكر ويبني الواقع تبعا للفكر ولقد كان انكساغوراس اول من قال ان Nous اي العقل يدير العالم ، ولكن ها هو ذا الانسان يتوصل الآن للمرة الاولى الى الاعتراف بان الفكر هو الذي يتعين عليه ان يدير الواقع الروحي . كان ذلك بمثابة طلوع بديع للشمس . وبفرح وسرور حيت جميع الكائنات المفكرة مجيء العصر الجديد . وفي ذلك الوقت ساد ابتهاج سام ، واهتز العالم كله بحماسة الروح كانما تصالح المبدأ الالهي للمرة الاولى مع العالم» (هيغل ، «فلسفة التاريخ» ، عام ١٨٤٠ ، ص ٥٣٥) .ـ او لم يحن الحين ، في آخر الامر ، لتطبيق القانون بصدد الاشتراكيين (٦٥) ضد الخطر الذي يتهدد دعائم المجتمع من جراء تعاليم البروفسور الراحل هيغل ؟

كل ذلك يجب ان يخلي المكان من الآن وصاعداً للحقيقة الخالدة ، والعدالة الخالدة ، والمساواة النابعة من الطبيعة نفسها ، وحقوق الانسان الراسخة

الا اننا نعرف اليوم ان سيادة العقل هذه لم تكن سوى سيادة البرجوازية المصورة بصورة المثال الاعلى ، وان العدالة الخالدة تجسدت في العدلية البرجوازية ، وان المساواة تلخصت في المساواة المدنية امام القانون ، وان الملكية البرجوازية اعلنت اول حق من حقوق الانسان . وان دولة العقل ـ العقد الاجتماعي الذي وضعه روسو (٦٦) ـ قد رأت النور بشكل جمهورية ديموقراطية برجوازية ، ولم يكن بالامكان ان يحدث ذلك على غير هذا الشكل . فان كبار مفكري القرن الثامن عشر ، شانهم شان جميع اسلافهم ، لم يكن بوسعهم تخطي الحدود التي فرضها عليهم عصرهم .

ولكن ، الى جانب التناقض بين النبلاء الاقطاعيين والبرجوازية ، التي برزت كممثلة للمجتمع الباقي كله ، كان التناقض الشامل بين المستثمِرين والمستثمَرين ، بين الاغنياء الكسالى والفقراء الكادحين ان هذا الامر الاخير هو الذي اتاح لممثلي البرجوازية ان يظهروا انفسهم ، لا بمظهر ممثلي طبقة ما ، بل بمظهر ممثلي الانسانية المتألمة جمعاء وفضلا عن ذلك ، كانت البرجوازية مثقلة ، منذ نشوئها ، بتناقضها الخاص : فان الرأسماليين لا يستطيعون البقاء دون العمال الاجراء ؛ وبقدر ما كان المعلم الحرفي في القرون الوسطى يتحول الى برجوازي عصري ، بقدر ما كان الصانع الحرفي والاجير اليومي غير المنتسب الى الحرفة يصبحان بروليتاويين واذا كانت البرجوازية قد استطاعت ، بعامة ، ان تزعم ، ببعض الحق ، انها تمثل في النضال ضد النبلاء مصالح مختلف الطبقات الكادحة في ذلك الحين ، فقد كانت تقوم ايضا ، الى جانب كل حركة برجوازية